فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

تتمة مانشر في العدد الماضي

وفي سنة ١٨٧٤ كتب نيتشه في مذكراته « إن ديني - إن كان لي شيء يصح تسميته بذلك - لايتعدى العمل لمنتجات العبقرية . أما الفن فهو التربية التي تحقق ما نأمله في الحياة وبذلك تهون علينا الحياة بما فيها من ألم . » وذكر نيتشه في نهاية الجزء الرابع من كتابه « إنساني ، وإنساني إلى أبعد حد » في فصل «عن روح الفنان والأديب » كلاما بلهجة اليائس ، إذ اعتبر الفن في تدهور واضمحلال - ولعله كان يتحدث في ذلك عن نفسه بالذات . فقد حمل نيتشه على الفنانين الذين يحجمون عن النظر إلى المثل العليا ، ويكتفون بالنظر إلى أعمالهم فقط . ولهذا انقلب على الفنانين وراح يمجد العلماء الذين يعملون للفكر ، فكل عالم أصبح في نظره « إنساني ، وإنساني إلى أبعد حد » . وهكذا بدأ يشيد بسقراط الذي كان قد نعته من قبل « بقاتل التراجيديا واتخذه مثلا أعلى له .

وعد نيتشه بعد كتابه الأخير من الحكماء البلغاء القابضين على ناصية المنطق والخيال والقول الحكيم . وكان في جده صارماً وفي لدعه قارصاً وفي مزحه ظريفاً . وهو إذا ما غضب بلغ حد الغضب ، وإذا ماعمد إلى اللعب نسي نفسه ، وإذا مارقص تفانى في الرقص ، وكان الرقص أحب الأشياء إلى نفسه . وكان نيتشه يري في نفسه رأس حكماء الألمان ويعتقد بأن أسلوبه هو الأسلوب الخالد ، إذ في وسعه أن يكتب في عشرة جمل مالا يكتبه غيره في كتاب كامل . وكان قد قرأ من الألمان ليشتنبرج Lichtenbetrg و « هينه » Heine ، ومن الفرنسيين مونتانى Montaigne وفونتنل Fontenelle وشامفور Chamfort وغيرهم . وكان يجد للفرنسيين آراء صادقة لم تجتمع في كافة كتب الفلاسفة الألمان .

وتخطى نيتشه في سنة ١٨٨١ تلك الأزمة التي عاجلته بعد كتاب « إنساني وإنساني إلى أبعد حد » وكتاب « آراء وحكم مختلفة » Vermischte Meinungen nud Sprueche وكتاب « الهائم وظله » Der Wandrer Und Sein Schatten ، وأحس بأنه قد استرد قواه الجسمانية والروحية بعد أن جال في التيرول وفي جبال الألب وفي شمال إيطاليا . ورأي نيتشه أن الحياة تفتحت له من جديد ، إذ أخذ يدرك الأشياء على حقيقتها بعد أن زال عنه الغشاء . وقد أدى به تجواله إلى هيامه بتلك البلاد الجنوبية هياماً ضارع حبه لوطنه . ومن ثم أصبح شخصاً آخر لايؤمن بوطن خاص ، وصار « أوربياً » لايفرق بين شعب أو وطن ، حتى لقد قال « لكي تكون ألمانيا صادقاً ، يجب أن تنزع النعرة الألمانية من صميمك » . كذلك قال : « إن الألمان هم رجال الأمس البعيد وسيصبحون رجال الغد البعيد ، اما أنهم رجال اليوم فلا ! » وما ذلك إلا لتعهدهم بتربية العاطفة بدلاً من تعهدهم تربية الفكر . وألمانيا في اعتبار نيتشه أحط مستوى من بقية دول أوروبا في الناحية الثقافية . ولم يشعر نيتشه بأنه ألماني إلا بالقدر الذي تسمح به طبيعته « الأوربية الصادقة » فهو ألماني كما هو بولوني أو إيطالي أو غيرهما . ولعل حياته الأولى ومحيطه الذي عاش فيه ساعداه على أن يكون ذلك الرجل

وإذا كانت أعمال « أفلاطون » و « اسبينوزا » و « بسكال » و « روسو » و « جيته » قد أحدثت تطورات في الفكر البشري كما يقول نيتشه فان كتاب « شفق الصباح » Morgenroete الذي أخرجه نيتشه عام ١٨٨٢ وجعل له عنواناً آخر هو « أفكار عن الأحكام الخلقية » أحدث هو الآخر تطوراً في الفكر البشري . وفيه عالج المسائل الأخلاقية ، فمثلا كتب عن العادات المستحبة . وتساءل : ماهي العادة التقليدية ؟ فقال بأن العادة التقليدية هي الخضوع إلى مايضاد العادات الغريزية . وقال بأن على الناس أن يتعلموا من جديد ، وعليهم أن يرفضوا ما اتفق عليه العالم من عادات تقليدية ، إذ لايوجد « عدل أبدي » ، ولهذا فهو ثائر على كل اعتبار ، حتى على الاعتبارات الدينية المسيحية . وأعقب كتابه هذا بآخر عنوانه العلم المرح Froehlich Wis - senschaft وقد حاول فيه أن يحرر الانسان من قيوده المكبل بها ، ويبعده عما لحق به ، كيما ينتعش فكره . ولم تمض أربع سنوات أخرى حتى أخرج كتاباً آخر عنوانه « لغة الريح

الساخن » (الذى من شأنه أن يذيب الثليج) - Der Sprache Tauwinds . والكتب الثلاثة الأخيرة تم بعضها بعضاً . وفيها من غريب الآراء فى الاخلاقيات مالا يصح تلخيصه فى مثل هذه العجالة .

وعثر نيتشه في قراءاته على « زرادشت » فيلسوف الفرس الأقدم ومعلمها الأول والحكيم الخالد الذى عالج كل مسألة . فاتخذ من اسمه شخصية تملى على الناس آراءه الخاصة . فأصدر فى فبراير سنة ١٨٨٣ الجزء الأول من كتاب « زرادشت » . ولم يكن نيتشه فى حاجة إلى أكثر من عشرة أيام لوضعه ، فجاء فى أسلوب من الشعر النثور الذى لايجارى . وكتب كتابه هذا أثناء تجواله فى طريق «زاوجلى» الذى يطل على خليج « رابللو » بالقرب من « جنوه » هنا لك نزل على نيتشه وحى ذلك الكتاب الذى اختار له اسم « كتاب للجميع ولغير أحد » وجعل له عنواناً آخر « هكذا قال زرادشت » - Buchfuer Alle Vnd Keinen , Also Sprach Zarathustra كذلك أتم الجزء الثانى والثالث منه فى عشرة أيام أخر . فكتب الجزء الثانى فى بلده « سلز ماريا » بين أواخر يونية وأوائل يولية من عام ١٨٨٣ وأتم الجزء الثالث فى يناير سنة ١٨٨٤ فى مدينة « نيس » . أما الجزء الرابع الذى كتبه لأصدقائه فقط فقد اقتطع من وقته زمناً أطول . وكان نيتشه أثناء وضع هذا الكتاب على أتم ما يكون من عافية وصحة . وكان لايسأم السير فى الجبال التى كانت توحى إليه بكل ما يكتب كما أن البحر الممتد أمامه كان له أثر في ذلك الوحى . ولقد كتب « زرادشت » كما لو كان يرقص أو يلعب . . فقد قال بلسانه « كان من السهل أن يرانى الناس راقصاً . وكنت لا أعرف للتعب معنى . فقد سرت فى الجبال عدة أيام ، وفي كل يوم أسير سبع أو ثمانى ساعات متوالية ، وكنت أنام ملء جفنى ، وأضحك من كل قلبى . لقد كنت مستكمل كل معدات الحياة والفكر صبوراً . وكان هذا العهد يختلف عن تلك الأيام التى كتب فيها « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » اختلافاً كلياً

وكم كان نيتشه شكوراً فى كتابه الرجل الطيب Ecco homo الذى أتى فيه بشىء من مذكراته لعام ١٨٨٨ .

ويعتبر كتاب « زرادشت » الذى وضعه نيتشه فى رأى بعض النقاد ومنهم بيتر جاست Peter Gast « من الكتب الواجب تقديسها » . وقال نيتشه نفسه فيه « إنه نوع أنيق من الدعاية للأخلاقيات . » بل هو « شعور نبى » . « وهذا الكتاب رقص وموسيقى ، هو ألحان جميلة وحكم غالية ، هو العاصفة والهدوء ، هو المرح الكامل والظرف والغضب ، وهو إلى جانب ذلك مرعب ومخيف ، إذ فيه أسرار دفينة . » وإنه « كالغابة والليل والأشجار أى مجمع الظلام ، فمن لايخاف ظلمته سيجد فيه زهوراً ورياحين » هذه هي كلمات نيتشه في كتابه الذى كان يعجب به ويسميه « قرار المحيط » . وكتاب زرادشت هذا يعد بأجزائه الأربعة صباح وظهر وعصر ومساء اليوم الذى سيولد فيه الانسان الكامل Uedermensch أو السوبرمان Superman كما أسماه . وهذا الانسان الكامل قد تخيله نيتشه فى كتابه « العلم المرح » . ولهذا الانسان وحده حق الحياة ومن أجله تحمل نيتشه مضض الحياة . أما الانسان الراقي Hoehere Mensch الذى تكلم عنه فى كتابه «زرادشت» يختلف عن الانسان الكامل الذى جاء يوصف له فى الجزء الرابع . ولاداعى للاسترسال فإن (الرسالة) تترجمه فى التحدث عما يتضمنه كتاب «زرادشت»، ونكتفى بما أشرنا إليه لنتحدث عن أسلوب نيتشه فى هذا الكتاب . فقد نهج فيه نهجاً فريداً . وكان نيتشه قد كتب إلى « روده» Rohde إمام اللغة فى ذاك العصر يسأله إن كان هناك فى اللغة الألمانية أسلوباً يضارع أسلوبه فى زرادشت من حيث القوة ، وإن كان يعتقد بأن اللغة الألمانية بلغت أقصى شأوها على يدي جيته Goethe ولوتر Luther ؛ ويقول نيتشه « إن أسلوبى هو الرقص ، هو لعب متجانس فى كل أشكاله كذلك هو القفز والاحتقار لكل تكرار » ويعد كتاب « زرادشت » أكثر كتبه انتشاراً وأبعدهم أثراً وغوراً ، وفيه تتجلى شخصيته وشاعريته . وهو يقول عنه : « إن هذا الكتاب أنشودة الليل — وفى الليل تجيش كل فوارة بصوت أعلى . كذلك روحى هي الأخرى فوارة . » وقال نيتشه على لسان زرادشت متحدثاً إلى شخصه : « إننى جوال أتسلق الجبال » كذلك قال « إننى لاأحب المنبسط من الأرض ، وقد تبينت أننى لا أستطيع الهجوع إلا يسيرا . ولا أنتظر من القدر إلا أن أبقى هكذا جوالا أتسلق الجبال» وهذا الشعر الرمزى هو طابع كتاب «زرادشت العظيم .

ولنيتشه في هـذا الكتاب شاعرية فذة ، فهو في بعض الأحايين يخجل من أن يكون شاعراً ، لأنه قد يكذب مع علمه بكذبه ، ومع رغبته في الكذب . ولهذا فهو يأبى أن يكون من طبقة الشعراء الذين لا ينظرون إلى أعماق الأشياء وأعماق الحياة . أما أنه كان ميالا إلى التلاعب بالكلام والصور في شعره فذلك لا ينكره أحد . وكان نيتشه رومانتيكي النزعة الأدبية ، ولكنه كان يأبى أن يعرف عنه ذلك ، هذا إلى أنه كان عدواً لدوداً للأدب الرومانتيكي ، ومع ذلك فقد كان كلاسيكيا في تذوقه للأدب . وكان من أنصار الايضاح والتبسيط ، يكره التفاصيل كما يكره التعقيد والتشكك . وكان يتذوق أدب « يونج ستلنج » Yung Stilling وجيتـه Goethe وشتفتر Stifter وجتفـريد كلر Gottfried Keller وهم من غير نزعته . وكذا ظهرت هويته فيما لا يملكه .

وكان نيتشه يعمل في نفس الوقت الذي أخرج فيه كتاب « زرادشت » في تأليف كتاب آخر أظهره سـنة ١٨٨٦ تحت عنوان « ماوراء الخير والشر » وهو مقدمة شبه مسرحية لفلسفة المستقبل ، وقال عنها نيتشه بأنها طريق ممهد لأرض زرادشت الموحشة الخطرة . وهو يختلف مع كانت Kant في تفكيره إذ يتساءل : لم الاعتقاد في مثل هذه الأحكام عن الأخلاقيات؟ وفي رأيه أنه لا يوجد مظاهر أخلاقيـة ، ولـكن توجد تعابير أخلاقية للمظاهر . وكما يوجد لطبقة السادة تعاليمهم الأخلاقية ، كذلك يوجد لطبقة العبيد تعاليمهم الأخلاقية الخاصة بهم . ولهذا فالخير والشر أشياء تتغير معانيها بتغير الزمان وتغير البيئة . ويرى نيتشه « أن التعاليم الأخلاقية لطبقة السادة كانت قد اختفت من أوربا ألفي سنة إلا أنها رجعت في عصره ، وكانت قد بلغت أوجها حينما وصل نابليون أسمى مجده . وفي رأي نيتشه أن الخير لا يوجد إلا عند الفقراء الذين لا قوت لهم ، وعند الضعفاء الذين لا حول لهم ، وعند المرضى والقبحاء وهؤلاء جميعاً هم المتدينون »

وكان نيتشه قبل إصداره كتابه الأخير على وشك إتمام نصف كتابه الأعظم « قوة الارادة لبلوغ الحكم ومحاولة قلب القيم جميعها » Der Wille zur Macht, Versuch einer Umwertung aller Werte وما يقصد نيتشه من « قوة الارادة لبلوغ الحكم » ؟ هو يقول : « إن الكائنات الحية تعمل قبل كل شيء لتظهر قوتها إذ الحياة هي قوة الارادة لبلوغ الحكم » وهو يرى في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي لم يتم وضعه أن اللاإرادة هي المسيطرة على مشاعر الناس . وبذا تسيطرت اللاإرادة على الإرادة للحياة . وفي الجزء الثاني من الكتاب نقد لكل القيم العليا : ففيه نقد للدين ونقد للأخلاقيات ومثلها العليا ونقد للفلسفة . أما الجزء الثالث فقد جعله كتاباً خاصاً بمبدأ تقرير القيم الجديدة . وقد اعتمد في وضع قيمه الجديدة هـذه على اللاإرادة التي اعتبرها أساس القوة وأساس السيطرة . ونظرته في الحياة هذه أصبحت عقيدة . فقال إن الارادة أساس الحكم في الطبيعة ، وهي أساس الحكم عند الفرد والجماعة ، وهي أساس الحكم في الفن . أما كتابه الرابع فقد أراد أن يكون تمهيداً لتطور وازدهار هذه الفكرة . وينتهي الكتاب بالقسم الأخير منه الذي اختار له « العودة الأبدية » عنواناً . ولكن لسوء الحظ لم يتم نيتشه كتابه هذا ، وكان الجميع يتوقعون أن يزدان به الأدب الألماني . ولم يكن هذا كل ما كان يريده نيتشه ، بل لقـد وضع تصميم كتاب آخر عن « الوحدة والانعكاف » في جزء خاص من كتاب « زرادشت » ولـكن الأجل لم يمهله ، ولم يعش ليرى أعماله تنتشر وتروج . وكانت سنة ١٨٨٨ هي أكثر السنين التي أنتج فيها نيتشه مؤلفاته

وقد لاحظ النقاد في بعض كتبه الأخيرة انطفاء جذوة فكره ، وبدت عليه أعراض الخبل ، وكان قد تملكه بعض الوقت . وقد جر عليـه تطرفه — وليس في ذلك مايعيبه — قسوة القدرة وإعراض الناس عنه ، ففي أواخر سـنة ١٨٨٨ أصيب نيتشـه بهزة عصبية شديدة ، وبدأ جسمه بعد ذلك في الاضمحلال . ولـكنه بقي حتى أواخر أيام حياته طيب القلب ، شديد الصبر ، كثير الأدب ، مراعياً إحساسات الناس كافة . وكان في سنة ١٨٨٨ قد خيل إليه أن لابد له من أن يبذل أقصى مجهود فكري ، فجمع أشعاره التي أسماها « أغاني زرادشت » ، ومنها قصيدة « غروب الشمس » الخالدة . ومن من الناس لايجد « زرادشت » أو « الانسان الكامل » حين يذكر اسم نيتشه ؟

وبقي نيتشه حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس